

الإثنية - 10-03-2008

192- نَفْسَةُ الحَيَاةِ المعاصرة، بين العلم والثقافة

تمهيد:

في نشرة سابقة ("علمٌ هذا أم ماذا؟ 18-2-2008) تساءلتُ عن طبيعة ما ينشر في هذه النشرة، وفيها نبهت إلى اتساع مفهوم ما هو "علم" مع تعدد المناهج وتنوع الاختلافات الإيجابية والسلبية، وبالتالي، من باب أولى، وجدت أن علينا أن نتساءل سؤالا متعلقا بالطب عامة، والطب النفسى بشكل أكثر تخصيصا: هل هو علم؟ أم مهنة؟ أم فن؟ (أم ماذا؟)

أنا أحب كلمة "معلم" (يكسر الميم، خوفا من قراءتها مضمومة، كما أنني أحب أن أعلم الصنعة أكثر)، أحبها أكثر من حي لكلمة عالم.

لاحظت مؤخرا بل طول عمرى، أن استقبال الناس لما يقوله النفسيون عن النفس البشرية مبالغ في قيمته، لأنهم يحسبون أن ما نقوله - خاصة في وسائل الاعلام - هو العلم المتين (أخشى أن أقول: أو النهائى)، والأمر ليس كذلك أصلا، بل إننى رفضت منظومة "التفسير النفسى للأدب" وكتبت معظم نقدى من منطلق "التفسير الأدبى للنفس" باعتبار أن الأدب هو الأسبق، ومنه نتعلم ماهية النفس أدق، ومن ثم يمكننا أن نعالجها أفضل.

حين زحف العلم عامة إلى الثقافة، وكان ينبغي أن يفعل، ومع تضخم منظومته، كاد يحتكر الحق في تشكيل الثقافة الأحدث، وذلك بتمادى الزحف إلى، وعلى، المنظومات المعرفية الأخرى، يسمّى هذا التوجه باسم "الثقافة العلمية"، وأنشئت له لجنة في المجلس الأعلى للثقافة شرفتُ بعضويتها منذ أكثر من عشر سنوات وحتى الآن، ومن خلال نشاطها المثابر استطعت أن أتبين خطورة التداخل غير المحسوب، وأحيانا غير المسئول، بين العلم والثقافة والخبرة والصنعة والفن، (وما بين منظومات وقنوات المعرفة عموما)، وأيضا خطورة طغيان إحداها على الأخرى.

أغامر بطرح تصورى عن ما جاء بالعنوان، وعلاقته بما يسمى "الثقافة العلمية" كما يلي:

مقدمة:

ثمة مقدمة أخرى أشعر أنها لازمة ابتداءً:

خطر ببالي - منذ البداية - أنه إذا كان التسخير العملي لمعطيات العلم في تسهيل وتنظيم السلوك اليومي المادي الظاهر هو ما يسمى التكنولوجيا (اللاحقة) فإن تسخير معطيات العلم في تشكيل وعي الناس وتنظيم مستويات الوجود (بما في ذلك مستويات الدماغ) يمكن أن ينتمي إلى هذا المفهوم الجديد المسمى "الثقافة العلمية"، ولا أعني بتنظيم مستويات الوجود أي محتوى إيديولوجي معين، وإنما أعني التنسيق القادر على إتاحة الفرصة لكي تمارس الحياة اليومية بأكثر قدر من الموضوعية والإبداع.

كان على أن أساءل من موقع تخصصي "ما هي معطيات وإسهامات العلوم النفسية في تنظيم الوعي البشري لتخليق ما هو ثقافة معاصرة مناسبة حركية الإبداع وتشكيل الحاضر والمستقبل؟

وجدتني - وأنا أحاول أن أجيب - أعيد اكتشاف أوجه القصور فيما يسمى العلوم النفسية والتي يمكن أن تعيق ما هو ثقافة علمية بالمعنى الذي قدمته حالا، ذلك أنني تبينت - ليس لأول مرة كما ذكرت- أن معطيات ما يسمى بالعلوم النفسية لا تعدو أن تكون إسهاما شديدا لتواضع لمعرفة النفس، وبالتالي فإن المغالاة في قيمتها قد يكون معوقا أكثر منه عاملا مساعدا في تشكيل الوعي بما سبق أن حدناه سلفا، وهكذا وجدت نفسي أحدد دورى في هذا المجال بالتأكيد على ما لا ينبغي، أكثر منه بالتأكيد على ما ينبغي، وإليك بعض ذلك:

أولا: مازالت العلوم النفسية، بما في ذلك الطب النفسي، من العلوم غير الناضجة غير الحكمة (بالمعنى السائد حتى الآن)، ومن ثم لا ينبغي أن تؤخذ معلوماتها باعتبارها مرجعا وصيا على وعي الناس أو مفسرا لسلوكهم، إلا في حدود متواضعة تماما، ومع اختلاف الثقافات، بما في ذلك تنوع الوعي الديني والمعتقد الديني والظروف البيئية والمعرفية المختلفة، تصبح الحاجة إلى توسيع مصادر المعارف النفسية أشد إلحاحا وإلزاما.

ثانيا: إن أوجب الواجب، ونحن نساهم في تشكيل الوعي الموضوعي، أن نحذر من "نفسنة" الحياة المعاصرة، وأعني بتعبير نفسنة (Psychiatrization أو Psycholization) = المبالغة في استعمال اللغة والرطانة والمصطلحات النفسية في تفسير مظاهر السلوك البشري، وخاصة في مجالات السياسة والإبداع، لأن هذه الحاجة التفسيرية النفسية المباشرة التي يطلبها الناس بإلحاح واستسهال، فيسائرهم الإعلام بسطحية وحنس نية، ثم يستجيب لها الأطباء النفسيون وبعض علماء النفس بالفتاوى والإملاء، إما أنها تتناول جانبا محدودا من السلوك، أو أنها تتبع نظرية بذاتها في علم النفس أو الطب النفسي، ثم بعد ذلك هي - غالبا - "وجهة نظر" لصاحبها أكثر منها معلومة محكمة، ناهيك عن التسطيح الغالب الذي يجعل ما هو "معرفة نفسية" أقرب إلى النصح والإرشاد والتفسير الخطى أحادي المنطق.

ملحوظة :

غدأ وبعد غد سوف ننشر حلقة من حلقات "سر اللعبة" عن "الحق في الفرحة"، هي "العبة الضحك"، وقد فضلنا أن ننشر نفس الألعاب اليوم، لنعد القارئ يستعد لها بتجربة الإجابة عليها قبل أن نناقشها، أو يطالع عليها في الموقع (العبة الضحك) "برنامج سر اللعبة" (20-2-2004) والدعوة عامة.

الألعاب العشرة + 1:

العبة الاولى: الضحك حاجة والفرح حاجة تانية دا انا ساعات وانا باضحك.....

العبة الثانية: أنا آخر مرة ضحكت من قلبي كانت.....

العبة الثالثة: أضحك ازاي وانا شايف اللي جارى ده!! دا أناعلشان اضحك لازم.....

العبة الرابعة: طبعاً لازم احب اضحك مهما كان ماهو أصل المسألة.....

العبة الخامسة: مش معنى إني باضحك اني ناسى همومى او هموم الناس هو يعنى قلة الضحك

العبة السادسة: انا باكرة اللي بيتمسخر على خلق الله قال اية بيضحك مع اني ساعات ..

العبة السابعة: الواحد نفسه يضحك بحق وحقيق أصل أنا بصراحة.....

العبة الثامنة: أنا ضرورى أنسى الاول قبل ماأصدق أنى قادر أضحك، أصل أنا

لعبة إضافية: أنا ينفع أضحك من قلبي حتى لو.....

العبة التاسعة: أنا نفسى أضحك مع حد يكون قريب منى وشايفنى، ماهو أصل يعنى.....

العبة العاشرة: لأه بقى!!! أنا من حقى أضحك بصحيح حتى لو

- أضفت اللاحقة، لأن التكنولوجيا ليست دائماً تطبيقاً عملياً لمنجزات العلم، فهي قد تسبقه، وبالتالي تكون "تكنولوجيا سابقة"